مقياس تاريخ الجزائر الثقافي

ملخص المقياس:

يتناول المقياس جوانب من تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة العثمانية والاستعمار الفرنسي، من خلال التطرق إلى التعليم ومستوياته والمؤسسة التي كانت تقف وراءه كمصدر لتمويله، بالإضافة إلى صور وملامح عن الحياة الأدبية والفكرية والعلمية والفنية ، وكذلك عن ظاهرة انتشار الطرق الصوفية، هذا في الفترة العثمانية، أما الفترة الاستعمارية الفرنسية نتناول السياسة الاستعمارية في محاصرة التعليم العربي واحلال محله التعليم الفرنسي، وكذلك نتناول الجمعيات والنوادي التي بدأت تظهر خلال مطلع القرن العشرين وأيضا ظهور الصحافة الجزائرية. وهذا بغرض تعريف الطالب بمعارف جديد ومحاولة اعطاءه صورة عن الواقع الثقافي خلال الفترة المدروسة.

مفاهيم عامة لمقياس تاريخ الجزائر الثقافي

أ ـ التاريخ:

عرف "ابن خلدون" معناه العام الذي كانت تداوله الأمم والأجيال وأدراكهم له كفن من الفنون الشعبية، واستقبالهم له كرواية شعبية، ويزيد فيها الرواة حتى تتراكم الأخبار وتضرب فيها الأمثال ويحكونه في أنديتهم واحتفالاتهم، حيث بهذا المفهوم يقول: **((فإنّ فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال، وتشّد إليه الركائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتساوى في فهمه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمى فيها الأقوال، وتضرب فيبها الأمثال ..))**. أما عن تعريفه فهو حسبه: **((علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل الحكمة عريق))**. فالتاريخ هو وصف الحوادث أو الحقائق الماضية وكتاباتها بروح الباحث الناقد عن الحقيقة الكامنة، وهو واسع ما تساع الحياة نفسها، ويضم الميدان الكلي الشامل للماضي البشري، والحقائق والبيانات التاريخية، وهي جزء لا يتجزأ من عملية النمو الاجتماعية الشاملة التي كانت تحيط بها.

ب ـ الثقافة:

الثقافة في لغة العرب تعود إلى كلمة (الثّقاف)، وهي الأداة التي كان صانعو الأقواس والرماح يسمونها بها، ويقال: أن الرمح أصبح مثقفا، وثقف الشيء أي أقام العوج منه سواء هذا من الناحية الحسّية، أما من الناحية المعنوية ويعنى هذا اكتساب الحذف والفطنة والنشاط.

أما عند الغرب فيدور معنى الثقافة في أصلها اللاتيني على فلاحة الأرض وتنمية العقل والذوق والأدب بالمعنى المعنوي.

أما التعريف العلمي فهي كما عرفها العالم الإنجليزي "دوارد بيرنت تايلور" (Edward Burnett Tylor) عام 1871، وهو التعريف الشهير الذي يقول فيه: **((هي ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والأعراف، وكل المقومات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع))**.

فهي جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب العلم بها والحذق فيها، وهي أيضا لها علاقة مع المعارف الأخرى، فعلاقتها وطيدة بالعلم وبينها وبين الحضارة، فبالنسبة للعلم هو جملة

المعارف التي يحصل عليها المتعلم، والثقافة كذلك. أما من جهة التمايز فالثقافة تتميز بالتنوع والشمول، فمن أخذ شيئا من كل شيء أصبح مثقفا، وأما العلم فيتميز بالتّخصص، فمن أخذ كلّ شيء تقريبا من شيء واحد فقد أصبح عالما.
والثقافة طابعها شخصي تختلف من أمة لأخرى، فثقافة الوثني والنصراني والهندوسي.. الخ تختلف عن بعضها البعض لأن كل ثقافة تستمد عاصرها من تصورها الديني في المقام الأول، أما العلم فطابعه موضوعي تتحدُّ فيه النتائج، وميدان الثقافة أوسع من ميدان العلم، وإن كان العلم يخدم الثقافة ويرشدها، فهي لا تستغني عن العلم.
أما علاقة الثقافة بالحضارة، فإن الأخيرة تتناول جملة من مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي التي تنتقل من جيل إلى آخر في جوانب الحياة المادية، أما الثقافة فهي جملة العلوم والمعارف التي يطلب الحذف فيها، فالثقافة تهتم بالجوانب المعنوية والحضارة ألصقت بالماديات، وهذا الفرق في الجانب النظري فقط. أما في الجانب العملي فهما يرتبطان مع بعضهما ارتباطا وثيقا، لأن ثقافة كل أمة هي أساس حضارتها وفكرها وأسلوب حياتها، فالثقافة والحضارة متفقتان من هذه الناحية، فالثقافة هي المظهر العقلي للحضارة، والحضارة هي المظهر المادي للثقافة.

ج - الجزائر:

الجزائر اسم لمدينة عظيمة على البحر الرومي؛ تعرف قبل الفتح الإسلامي باسم "أقسيوم" (Icosium)، ولم تكن تطلق على وطن مترامي الأطراف إلا منذ العهد العثماني حيث اتخذ العثمانيون المدينة عاصمة لمملكة ذات حدود معينة، فاشتق اسم الوطن من هذه عاصمة دولته الجزائر. التي كانت تمثل جزء من وطن كبير عرف من قبل قدوم الفينيقيين باسم ليبية، وحسب الرّحالة "البكري" تشمل (طرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ثم انسلخت الجزائر وما والاها غربا من هذا الاسم، فكان الجغرافيون اليونانيون واللاتينيون يقسمون هذا الوطن الذي عرف أخيرا باسم الجزائر إلى ثلاثة أقسام هي:
1 - مصيصليا (Massessylie) وهو عبارة سهول سطيف وبرج بوعريريج وتشمل الجزائر وغربها حتى وادي ملوية.
2 - مصيليا (Maessillie) وهو باقي شرق الجزائر إلى غرب تونس إلى طبرقة، ثم صارت مصيصليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا.
3 - جيتولية (Getulie) وهو عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا، ولما جاء الفاتحون المسلمون أطلقوا على اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الأطلسي غربا، والبحر الرومي شمالا الصحراء الكبرى جنوبا. وقد سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب ثم قسم العرب المغرب إلى أدنى وأوسط وأقصى؛ وذلك بالنسبة لشرقهم.
- المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا وبجاية غربا.
- المغرب الأوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا.
- المغرب الأقصى هو ما بين ملوية شرقا والمحيط الأطلسي غربا.

عرفت الجزائر عبر تاريخها دول متعاقبة على أرضها منذ القدم بما تحمله تلك الدول من مؤسسات دستورية وعلاقات خارجية ودبلوماسية، ومما تميزت به أنها كانت تصهر

الوافدين إليها وتقودهم إلى الانخراط في نسيجها الاجتماعي، إذ سرعان ما يختلطون بأهلها الأصليين ويتزاوجون منهم، ويصبحون جزءا من هذه البلاد، وخاصة بعد الفتح الإسلامي.
يجمع المؤرخون أن البربر أو الأمازيغ هم أصل سكان الجزائر خصوصا، وبلاد المغرب عموما، وقد حافظوا على شخصيتهم عبر القرون مع الفينيقيين والقرطاجيين (814 - 146 ق.م) والرومان (146 ق.م - 429 م) والوندال (429 - 534 م) والبيزنطيين (534 - 647 م) إلى أن وحدّ البلاد تحت راية الإسلام في دائرة العروبة في القرن السابع الميلادي.
وفي هذا الشأن؛ لم يكن الأمازيغ الأحرار بعُدَاءُ عن العرب والعروبة فإن "ابن خلدون" مؤرخ البربر الأكبر وعمدة تاريخ بلاد البلاد القديم والمعتز بأصله البربري ـ مما يبدو من تاريخيه ـ يؤكد أن الأمازيغ أو البربر من أبناء مازيغ بن كنعان بن حام، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بآسيا، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب.
ومهما كان الحديث عن عروبة الأمازيغ، فالحاصل أن البربر والعرب كلهم انصهروا في بوتقة الإسلام، وهو ما عبر عنه الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي تعود أصوله إلى قبيلة صنهاجة البربرية: **((إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة قرنا، تمّ دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشّدة والرّخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السّراء والضّراء، حتى كونت منهم، في أحقاب بعيدة، عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله، وما أسالوا من محابر في مجالس الدرس لخدمة العلم، فأي قوة بعد هذا، يقول عاقل، تستطيع أن تفرقهم؟)).**
وفي ظل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب من القرن السابع وحتى القرن السادس عشر الميلاديين، عرفت الجزائر دولا محلية متداخلة ومزاحمة لدولة الخلافة المشرقية، مما يرسخ تقاليد فكرة الدولة بالمنطقة، ومما بعد رصيدا تاريخيا للقائلين بعراقة الدولة الجزائرية وأصالتها على الرغم من تداخل حدود الجزائر مع غيرها من بلاد المغرب بشكل عام حيث نشأت عدة دول هي: (الرستمية، الإدريسية، الأغلبية، الفاطمية، الزيرية، المرابطية، الموحدية الحفصية، الزيانية) من 144هـ (909م) إلى 936 هـ (1554م).
وإن كانت هذه الكيانات السياسية خطوات عريقة في طريق تشكل أركان الدولة الجزائرية من حيث شعبها الذي صاغته الظروف البيئية والاجتماعية والسياسية، ومزجته القرون ووحدته الأقدار، وربطت بينه وبين أرضه التي استظل بظلالها، وارتوى من مياهها، وتغذى على ما يخرج من بواطنها؛ فإن بقية أركان الدولة ما فتئت تتكامل لتأخذ معالمها الثابتة في العصر الحديث منذ القرن السادس عشر الميلادي، من خلال اتفاق بعض زعمائها مع الأخويين "عروج" و"خير الدين بربروس"، على الاتحاد من أجل التصدي للخطرين الإسباني والإيطالي، بعد احتلالهما لموانئ جزائرية وفرض الجزية على سكان المدن الساحلية، مما دفع بالبلاد إلى الالتجاء إلى دولة الخلافة ـ آنذاك ـ وبفضل دعمها تحول خير الدين من مجرد أمير للبحر، إلى رئيس دولة مرتبطة بالخلافة العثمانية، ومتحالفة معها ضد إسبانيا التي كانت تقود التحالف المسيحي.

بفصل جهود "خير الدين بربروس"، بدأت معالم ومقومات الأمة الجزائرية، وكيان دولتها المتميزة تتحدّد باختيار عاصمة قارة (هي إلى الآن مدينة الجزائر) ورسم حدود معينة، ووضع قوانين إدارية وإقامة أنظمة اقتصادية واجتماعية، وعلاقات سياسية خارجية، ضمن نطاق الوحدة الطبيعية التي تربطها بالبلاد العربية والدولة العثمانية.
واستمرت تلك المعالم في عملية الترسيخ والتأكيد طيلة هذه المرحلة (1518 - 1830م) حيث دخلت الجزائر في فكرة ـ الحدود الجغرافية والسيادة الترابية ـ وحتى الاعتراف الدولي، تلك الجزائر التي امتدت من أدار إلى القالة، ومن مدينة الجزائر إلى بسكرة و ورقلة.
تمثل تلك القرون الثلاثة واحدة من أمجد عصورنا من حيث التعمير والإنشاء، وتنظيم المدن وتخطيط شوارعها من حيث الحفاظ على الأمن والاستقرار وتوطيدهما، والعناية الفائقة بالعلم والعلماء، لكن الكتابات الاستعمارية تغفل عن النظام الهيكلي للدولة عند المسلمين ـ في ذلك الوقت ـ وتتجاهل الإنجازات العظيمة في تلك الفترة، يكفي للاستدلال عليها، أن الجزائر أبرمت مع فرنسا 70 معاهدة فيما بين 1535 و1830م في إطار إنجازات عسكرية بحرية وإسعافات مالية ومساعدات غذائية لصالح فرنسا، كما نجد دليلا على عظمة الجزائر في ذات الرسائل التي كانت تُوجّهُ إلى حكامها من ملوك فرنسا وأباطرتها، حيث نقرأ في مستهل أغلبها عبارة: **((إلى السيد الأمجد الأعظم الأفخم))**، بل كان للدّاي شخصية دولية إذ كانت الدول تعقد معه المعاهدات باسم الدولة الجزائرية، التي كانت بمثابة جمهورية عسكرية تربطها بتركيا علاقات دينية واتفاقات شكلية، وكان حكام البلاد يتعاملون مع قادة الدول بصفة مباشرة، ويبرمون الاتفاقيات التجارية، ويتقاضون مع جميع الدول انطلاقا من مبدأ الدفاع عن مصالح الجزائر.

جوانب من الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

أولا ـ التعليم ومستوياته:

أ ـ مؤسسة الأوقاف مصدر التعليم:

تشهد كتب الرّحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني أن التعليم كان منتشرا وأن كل جزائري تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة، وقد كان التعليم حرا من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية، لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل إلى معرفة وفهم أسرار هذا الدين والقرآن والسنة، ولذلك كان القرآن أساسا للتعليم في الجزائر سواء كان تعليما ابتدائيا أو ثانويا أو عاليا، وكانت المدارس على مختلف مستوياتها تمول وتغذى بالأوقاف التي يحبسها أهل الصلاح والخير من الرجال والنساء، وفي بعض الأحيان كان يحبسها موظفون سامون في الدولة كعمل من أعمال الخير، فكان هناك أملاك خاصة وعقارات وأراض يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف للمعلمين وتوفير المساكن للطلبة، فالأوقاف كانت الأساس في تدعيم التعليم وحماية الطلبة والمعلمين.
ولم تكن كل الأوقاف مخصصة للتعليم فقد كانت هناك أوقاف لعدة مصالح أخرى مثل: العناية بالحج، وتسمى أملاك مكة والمدينة، وهناك لإقامة العيون وحماية الثكنات، وهناك أخرى لبناء واستصلاح المساجد والزوايا كأوقاف (سبيل الخيرات) وهي عبارة عن جمعية

كانت تشرف على ثمانية مساجد في العاصمة، وكانت هناك أوقاف خاصة بالجامع الكبير بالعاصمة أيضا، بالإضافة إلى أوقاف أخرى كانت منتشرة في مختلف مدن الجزائر.
ولكن هذه الأوقاف لم تكن دائما لأغراض خيرية، ففي أحيان كثيرة كان الناس يوقفون لحماية أملاكهم من الضياع أو لحمايتها من يد السلطة، ومن حقهم أن ينصوا على أن يستفيد منها الأحفاد والفقراء، وكانت النساء تستفيد من هذه الأوقاف، ولاسيما عند الولادة أو اليتم أو الفقر، وكثيرا ما كانت الأسر تلجأ إلى طريقة الوقف لعدم ثقتها في صلاح الورثة، ولكن كل هذه الأغراض كانت ثانوية إلى جانب الغرض الرئيسي من الأوقاف وهو خدمة العلم ومساعدة الفقراء والمساكين.
وقد كان هناك قيم أو وكيل على مؤسسة خيرية، وكانت مهمته العناية بالأوقاف ومراقبة الدخل، وكانت الأوقاف لا تباع إلا في الأحوال النادرة وعندما يخشى عنا التلف، فإذا كانت عامة فإن الدولة تعيين عليها موظفا رسميا، أما إذا كانت خاصة فإن هناك مجلسا يقوم بتعيين رجل صالح يراقبه المجلس، وهناك أخطاء قد ارتكبت ولا سيما في الأحوال العامة حيث الرقابة ضعيفة إلا من الضمير.

ب ـ مستويات التعليم:

بخصوص التعليم الذي كانت ترعاه هذه الأوقاف فقد كانت على ثلاثة مستويات: الابتدائي والثانوي والعالي.

1 ـ التعليم الابتدائي:

بالنسبة للتعليم الابتدائي كان كل طفل بين السادسة والعاشرة يذهب إلى المدرسة، والملاحظ أن هذا بخصوص الأطفال الذكور، أما الإناث فلا يذهبن إلى المدارس إلا نادرا، ولكن أصحاب البيوتات الكبيرة كانوا يجلبون أستاذا معروفا بصلاحه وعلمه لتعليم البنات، وفي كل قرية صغيرة أو (دوار) كانت هناك خيمة تدعى (الشريعة) خاصة بتعليم الأطفال ويشرف عليها مؤدب يختاره سكان القرية لهذا الغرض، أما في المدن والقرى الكبيرة فقد كانت هناك تدعى (مسيد) أو مكتب، وكانت غالبا ملحقة بالوقف، وإلى جانب ذلك كل جامع تقريبا يضم مدرسة للتعليم أيضا.
كان لكل مؤدب أجرة خاصة ولكنها كانت غير قارة، فهي تختلف حسب حالة أولياء التلاميذ المادية، كانت كل أسرة تدفع على قدر حالها، وفي الأعياد وعندما يحفظ الطفل القرآن يأخذ المؤدب أجرا إضافيا، وكثيرا ما يجمع المؤدب إلى وظيفته تحفيظ القرآن وظيفة أخرى كالإمامة والأذان.
وكان المؤدب محل احترام سواء كان في القرية أو المدينة ويعيش بالمقارنة عيشة طيبة، وتذكر بعض المصادر أن أحد المؤدبين في قسنطينة كان يتقاضى حوالي ثلاثين فرنكا سنويا على الطفل الواحد من الهدايا والتعويض عند حفظ القرآن والأجرة المعينة، وكان لدى المؤدب حوالي 25 طفلا، فكان يناله حوالي فرنكين في اليوم بالإضافة إلى دخله من بعض الوظائف الأخرى، ولم يكن هناك رقابة رسمية على المؤدب المهم أن يكون يعرف جيدا القراءة والكتابة، أما أهل البادية فكانوا يرسلون أطفالهم للتعليم في المدن حيث يقيمون عادة مع عائلات صديقة أو يصرف عليهم مجانا من الأوقاف.

وتذكر المصادر أنه كان في كل قرية مدرستان، وكانت المدن تختلف في عدد المدارس فقسنطينة في عهد "الحاج أحمد باي" كانت تضم 86 ابتدائية، وكان يتوزع عليها حوالي 1350 تلميذا، وكان في تلمسان في نفس الفترة حوالي 50 مدرسة ابتدائية.
ومدة التعليم الابتدائي حوالي أربع سنوات يتعلم الطفل خلالها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن وأركان الإسلام وشعائر الدين، وإذا كان الفقراء يكتفون بهذا القدر من التعليم فإن الأغنياء يواصلون تعلمهم، وبذلك يدخلون المرحلة الثانوية.

2 - التعليم الثانوي:

كان التلميذ يستطيع أن يواصل تعليمه الثانوي في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالأوقاف، وكان التعليم الثانوي مجانا، وكان الباي هو الذي يسمى المدرس باقتراح من الناظر، ويتلقى المدرس أجرته من الأوقاف وهي تبلغ مائة إلى مائتين من الفرنكات سنويا، وكان يسكن مجانا، وغالبا ما يجمع إلى وظيفته كمدرس وظائف أخرى كالقضاء أو الإفتاء، وكان يسود اعتقادا أن المدرس يقضي وقته يعد الدروس، ولذلك يأتيه الناس بالضروريات كالماء والزيت للمصباح، كما كانوا يأتونه يوميا بحلويات رمضان وملابس العيد، والطعام، ومن جهة أخرى التلاميذ أيضا يحصلون من الأهالي على الحلوى والزيت للمصباح وعلى السكن مجانا والماء.
كان في العاصمة وقسنطينة وتلمسان جوامع ومدارس وزوايا لإيواء التلاميذ، ففي قسنطينة حيث كان 35 جامعا و7 مدارس، كان 150 تلميذا من 700 يحصلون على أجرة سنوية من دخل الأوقاف تبلغ 36 فرنكا، وكان معظم هؤلاء التلاميذ من سكان الأقاليم وقد أعدت لهم زوايا خاصة لسكناهم بلغت 16 زاوية.
وكان في العاصمة 6 زوايا لهذا الغرض: ثلاث لعرب الغرب واثنتان لعرب الشرق، أما الأخيرة فقد أعدت لإيواء المدرسين في العاصمة واللذين ليس لهم عائلات مقيمة.
أما تلمسان فقد كان فيها عدد كبير من هذه الزوايا، كما كان فيها مدرستان إحداهما مدرسة الجامع الكبير والأخرى مدرسة أولاد الإمام، وفي ضواحي تلمسان كانت أيضا مدرسة عين الحوت.
والزوايا لم تكن مقصورة على المدن، بل كانت هناك زوايا في الأرياف تقام تخليدا لأحد المرابطين ويقام بجانبها مكان للصلاة وبئر للشرب والوضوء، وتخصص الأرض لهذه الزوايا الريفية فيحرثها الأهالي ويستعمل دخلها لمساعدة المدرسين والطلبة، ويخصص أهل الخير جزءا من محصولهم السنوي للزاوية التي توجد في منطقتهم، وكانت الزوايا منتشرة ولاسيما في الغرب الجزائري، وكان في منطقة تلمسان وحدها أكثر من 30 زاوية، وهناك أخريات منتشرات في جهات الونشريس ومعسكر وسيدي بلعباس ومستغانم. أما متيجة ومنطقة جرجرة فقد كانت تضم أكثر من ثماني زوايا أشهرها زاوية البركاني قرب شرشال، وزاوية ابن علي الشريف في أقبو، وزاوية النميلي في بني موسى، ..الخ.
وكان يتلقى العلم في المرحلة الثانوية حوالي 3000 تلميذ في كل إقليم من الأقاليم الثلاثة، وكانت الدروس تشمل على النحو والتفسير والقرآن، وينال الطالب في النهاية (إجازة) تشهد له بأنه قدر درس جميع العلوم التي تدخل في نطاق تخصصه: والإجازة ليست شهادة مكتوبة

ولكنها تعبير شفوي من المدرس إلى التلميذ، ومتى حصل التلميذ على الإجازة يصبح (طالبا) يستطيع قراءة القرآن في الجامع ويتولى وظيفة مؤدب أو كاتب.

3 ـ التعليم العالي:

ليس هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي، والأستاذ الذي يدرس في العالي يسمى (عالما)، أما عدد الطلبة فقد كانوا بين 600 إلى 800 في كل إقليم يواصلون تعليمهم العالي، وكان الأساتذة في هذا المستوى يتقاضون أجورهم من الأوقاف أيضا، وكانت الدروس العالية تعطى في الزوايا وأهم الجوامع، ففي إقليم وهران كان الجامع الكبير في تلمسان وجامع سيدي العربي والزاوية القادرية (التابعة لأسرة الأمير عبد القادر)، وفي إقليم الجزائر كانت زاوية ابن المبارك بالقليعة، وزاوية مليانة، وزاوية بني سليمان، وزاوية ابن محي الدين، أما في إقليم قسنطينة فهناك الجامع الأخضر وجامع سيدي عقبة، وزاوية ابن علي الشريف في جرجرة.

وأهم مواد التعليم العالي هي النحو والفقه الذي يشمل العبادات والمعاملات والتفسير والحديث والحساب والفلك، بالإضافة إلى التاريخ والطب. لكن كان يغلب على الدراسة طابع العصور الوسطى وقلة التجديد والحفظ، وهناك عدد من الجزائريين درسوا وتخرجوا بهذه الطريقة في العهد العثماني، ولكنهم اختفوا في بداية الاحتلال الفرنسي. وقد كان "حمدان خوجة" ووالده من الذين درسوا على هذه الطريقة، ولكن الجزائريين المنتجين كانوا قلة، وكانت الدراسة في شكلها الذي تمّ وصفه تساعد على إخراج الموظفين في المجال الديني والكتابة ولكنها لا تساعد على إخراج المنتجين في ميدان الفكر والأدب.

الحياة الأدبية والفكرية والعلمية والفنية في العهد العثماني

أ ـ الأدب والفكر:

إذا عدنا إلى الحياة الأدبية فإننا نجد بعض المحاولات الطيبة ولكنها لا تدل على نهضة ثقافية، فقد شهد القرن الثامن عشر عملين من كتابة الرّحلات: أحدهما للمفتي المالكي "أحمد بن عمار" الذي سجل ملاحظاته أثناء رحلته إلى مكة، وثانيهما "حسين الورتيلاني" الذي كتب أيضا في رحلته إلى المشرق.

وشهد علوم الفقه وأصول الدين تقدما على يد "عبد الرحمن باش تارزي القسنطيني" والشيخ "عبد العزيز الثميني الميزابي"، أما في الأدب فإننا نجد الشيخ "محمد بوراس الناصري" يخلد شعرا ونثرا انتصار "محمد الكبير" باي وهران على الإسبان سنة 1791، ويسجل فرحة المسلمين بعودة وهران إلى الحكم الإسلامي.

ونتيجة لضعف العربية الفصحى انتشر بين الناس انتشر الأدب الشعبي، الذي أصبح ميدانا للتعبير عن خلجات الشعب في السّراء والضراء، وقد لمعت أسماء أمثال: "ابن مسايب التلمساني" و"سيدي ابن علي" في هذا الميدان، وكلاهما في القرن الثامن عشر. أما في القرن التاسع عشر فنجد شعراء سجلوا بعض خواطرهم في الأحداث الهامة كما فعل الشيخ "عبد القادر الجزائري" في قصيدته عن احتلال الجزائر، والشيخ "قدور ولد محمد" الذي كان يهاجم "الأمير عبد القادر" بينما كان الشيخ "الطاهر بن حواء" ممدحهُ.

وقد وجد الروائيون في أبطال الإسلام والجاهلية كـ "عنترة بن شداد"، وشخصيات يقولون على لسانها أشياء كثيرة كما وجدوا في شخصية "جحا" وسيلة للتعبير عما لا يمكن أن

يعبروا عنه واقعيا. أما في ميدان الشعر الفصيح فهناك "الأمير عبد القادر" الذي سجل معاركه وانتصاراته بشعره، وله ديوان مطبوع في هذا الموضوع، وقد كان "حمدان خوجة" يقرض الشعر أيضا، ولكن شعره الذي وصل إلينا ضعيف ومتصنع.
أما الأعمال التاريخية فلم نجد أشياء هامة، ولكن يمكن أن نذكر بعض الأمثلة، من ذلك الرسالة التي كتبها "عبد القادر المشرقي" بعنوان ((بهجة النّاظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر)) والعنوان يدل على المحتوى، والرسالة في حوالي 24 صفحة.
وقد كتب "حمدان خوجة" كتابه ((المرآة)) نشر الجزء الأول ووعد بنشر الجزء الثاني ولكنه لم يظهر، ورغم أن الكتاب مترجم عن العربية فإنه إلى الآن لم يعثر الباحثون على الأصل العربي، والغالب أنه ضاع، و((المرآة)) عمل تاريخي هام يعتبر من أهم الوثائق المعاصرة للاحتلال الفرنسي، وقد كتب من وجهة نظر جزائرية، فهو مصدر من المصادر الضرورية لفهم ردود الفعل التي أحدثها الاحتلال الفرنسي في سنواته الأولى. كما له تأليف أخر بالعربية الذي يحمل عنوان ((إتحاف المنصفين والأدباء)) و"خوجة" في هذا الكتاب يظهر أنه عصري الروح طليق العبارة واسع الاطلاع على أحوال بلاده وعصره. وفي هذا المجال التاريخ كتب أيضا "أحمد بن المبارك" ((تاريخ قسنطينة))، كما كتب "محمد الصالح العنتري" (تاريخ بايات قسنطينة)).

ب ـ العلوم:

أما العلوم فقد كانت ضعيفة، وكان باشوات الجزائر يوظفون الأجانب للعناية ببعص الأشياء الدقيقة أو الفنية، ومن ذلك توظيف أحد الفرنسيين للعناية بالساعات الكبيرة التي كانت الدول الأوروبية تهديها إلى الباشا، وتوظيف أجانب آخرين للعناية بالمدفعية، وبناء السفن، ونحو ذلك. وبدل الاهتمام بتكوين الجزائريين من الوجهة الفنية اعتمد الباشوات والمسؤولون العثمانيين على بعض الأرقاء المسيحين الذين كانوا يلبون حاجات الباشا. ومع ذلك فإن الجزائيين قاموا بمساعدة بعض الأجانب ببناء قنطرة وادي الشلف سنة 1814 التي اشترك فيها حوالي 300 من الجزائريين و167 من اليونانيين، وهناك قنطرة وادي الرمل في قسنطينة التي بينت في عهد "صالح باي" التي أشرف عليها "بارثولوميو" الإسباني، وقد أظهر الجزائريون مهارة فائقة في بناء المنازل الجميلة والقصور البديعة، وشبكات المياه والفورات والعيون، وظهر في العهد العثماني تأثير العثمانيين في المساجد، كما ظهر التأثير البيزنطي.

ج ـ الطب:

لقد أهمل الجزائريون الطب سواء القديم منه أو الأوروبي المعاصر، فلم يكن هناك مستشفيات باستثناء الزوايا التي كانت تأوي العجزة والمرضى، وكان المرجع في هذا الميدان هي كتب الأقدمين كـ "ابن سينا"، وقد كانت فوائد الأعشاب معروفة للناس، فألف الشيخ "عبد الرزاق الجزائري" كتابا في فوائد الأعشاب، ولم يكن هناك امتحان ولا مهنة للأطباء، والذين يقومون بالعلاج هم غالبا مرابطون يدوون بالجن والأرواح، وليس بالعلم، وكان بعض حملة الشهادات الذين يعالجون مرضاهم في دكاكين تشبه دكاكين أصحاب الحرف الأخرى.

أما أعمال الجراحة فكان يقوم بها الحلاقون الذين يلجأون أيضا إلى استعمال الكي، ومنذ القرن السادس عشر كان في مدينة الجزائر مستشفى إسباني خاص بالمسحين، ولم يكن للسلطة العثمانية أي تدخل في مهنة الطب ما عدا تعيين (جراح باشي) الذي كان من الجنود الانكشارية، والذين كان يصحب الجيش في الحملات الكبيرة للعناية بالجرحى. وفي بعص الأحيان كانت السلطة تستفيد من خبرة الأطباء الأجانب الذين يؤخذون أسرى، فالألماني "بفايفر" أصبح سنة 1825 الطبيب الخاص ورئيس الطباخين في القصر، وعند دخول الفرنسيين سنة 1830 كان "بفايفر" هو الطبيب الوحيد الذي كان يعالج الجرحى الأتراك والأهالي، وقد ترك مذكرات هامة تسجل دخول الفرنسيين وتصف حالة الجزائر عندئذ. ومن جهة أخرى كان لبعض القنصليات أطباء خاصون، ولعل ضعف الطب هو الذي يفسر ارتفاع نسبة موت الأطفال في الجزائر وانتشار بعض الأمراض المعدية كمرض الزهري الذي جاء به الأوروبيون خلال القرن السادس عشر.

د - الفـــن:

رغم القيود الدينية في المجال الفني فإن هناك بعض الفنون قد شهدت تقدما ملحوظا، من ذلك فن العمارة في تلمسان وقسنطينة وبعض مساجد العاصمة، وهناك بعض الصور التي حملها أصحابها من الشّرق إلى الجزائر وقلدها السكان، وقد تقدم فن تزين البيوت من الداخل (الديكور) وظهر فيه الذوق المحلي، وكانت الجزائر تستورد الرخام من إيطاليا، كما كانت تستورد الفسيفساء من تونس وإسبانيا وإيطاليا أيضا، وامتاز قصر "مصطفى باشا" بأعمال الزينة المستوردة من هولندا، وقد ظهرت براعة الجزائريين في الأعمال الخشبية كالأبواب المنقوشة والشّرفات ذات الأعمدة الجذابة، وبالإضافة إلى ذلك امتازوا بأعمال الزرابي ذات الذوق الرّفيع، والفخار الملون الجميل، والطراز بالذهب والفضة.

ه - الموسيقى:

في ميدان الموسيقى كان الريفيون يستعملون آلات محلية كالبندير والطبلة والقصبة، وكان عرب المدن يستعملون آلات أخرى أكثر دقة كالربابة والقانون والعود والدّربوكة والجواق، وكانت الألحان إما أندلسية وإما محلية متأثرة بها. وكانت هناك فرق موسيقية متعددة تجد مجالها في المقاهي وفي المناسبات الاجتماعية والدينية: الزواج، الطهارة، المولد النبوي، ورمضان.

وكان للأتراك فرق موسيقية خاصة، كما كان للشخص الميسور فرقة خاصة بهم، وهناك فرق موسيقية خاصة بالحملة أو الحملات العسكرية، وكان للباشا نوعان من الموسيقى: موسيقى العشية وموسيقى الصّباح، أما آلات الموسيقى التركية فقد كانت النّاي والغيطة والطّبل، حتى الزّنوج كانت لهم موسيقى خاصة وآلات تكاد تكون خاصة مثل الطّبلة الكبيرة والقراقب والغنبري.

و - الرقـــــص:

كان الرقص أيضا شائعا ولكن لدى الممتهنين فقط سواء كانوا رجالا أو نساء، فالرجل المحترم وكذلك المرأة المحترمة لا ترقص على الأقل أمام الناس، وكان الرقص عملا فرديّا، وقد كان الرقص في المدن متأثرا بالرقص الشّرقي، أما الرّقص في الرّيف فقد كان يمتاز بطابع محلي، وفي أحيان كثيرة كانت الراقصة مغنية.